

الشُّكُوكُ

من النادر جدًّا أن يتواعد مُحِبَّان على اللقاء بعد فراقٍ طويلٍ ثم لا يسرعان إلى موعد اللقاء بلهفةٍ شديدةٍ واشتياقٍ عظيمٍ، إن لَمْ يكن حُبًّا أو حنينًا أو رغبةً في المتعة والسُرور، فعلى الأقل من قبيل الفضول والاستطلاع والرغبة الملحة عند كلٍّ منهما في الوقوف على أخبار صاحبه وأحواله في الغياب الطويل: هل أَحَبَّتْ غيره؟ وهل أَحَبَّ غيرها؟ وهل سَلَتْ؟ وهل سلا؟ وبماذا يشعران في الحب الجديد؟ أو ماذا بقي عندهما من الحب القديم؟ وماذا تقول له حين تخلو به؟ وماذا يبدر من كلامه حين يخلو بها؟ وأشباه ذلك من الأسئلة التي يلقيها كلاهما على نفسه ويحسب أنه في أشد الحاجة إلى الوقوف على جوابها، فربما كان هذا الفضول من أقوى مظاهر الحب، ومن أوثق روابط الاتصال بين كثيرٍ من الناس؛ محبين كانوا أو غير محبين.

فإذا حدث غير ذلك واجتهد أحد العاشقين أو كلاهما في اجتناب الموعد المنتظر بعد طول العزلة والجفاء، فلا بد أن يكون بينهما شبحٌ قائمٌ من الآلام والأكدار يغطي على جميع المشوقات والمرغبات، ويعكس الفضول والاستطلاع؛ فيستحيل إلى صممٍ ونفورٍ، ويصبح كل شيء أهون من تجديد تلك الحالة المكروهة والعودة إلى ذلك الشبح المرهوب. وهكذا كانت الشكوك التي تمثلت لصاحبنا؛ فانساق بغير وعي ولا إرادة إلى اجتناب الموعد، والفرار من المنزل، والهزء بكل إغراءٍ وتشويقٍ ينبعث في أعماق جسِّه من شيطان ذلك الشغف القديم.

كانت شكوكًا مريرة لا تغسل مرارتها كل أنهار الأرض، وكل حلاوات الحياة، كانت كأنها جدران سجن مظلم ينطبق رويدًا رويدًا، ولا يزال ينطبق وينطبق وينطبق، حتى لا منفس ولا مهرب ولا قرار، وكثيرًا ما ينتزع ذلك السجن المظلم طبيعة الهرة اللئيمة في مداعبة الفريسة قبل التهامها، فينفرج وينفرج حتى يتسع الفضاء بين الأرض